

نظرة في جانب من نظام التعليم في السويد

الاختيارية لمن يريد أن يأخذ منها بطرف قليل أو كثير ، ما دامت مواهبه العقلية تتيح له الاستفادة من مثل هذه الدراسة . والسويد كذلك تؤمن بالفكرة التربوية السليمة التي أخذت تسود الآن . من وجوب تقسيم التلاميذ حسب مقدرتهم العقلية وسنهم الزمنى معاً ، فقد اتضح ضرر حشر تلاميذ مختلفي السن في فصل واحد تحت إشراف مدرس واحد . ومن هنا سادت الفكرة الحديثة في المدارس الأوربية من ترقية التلاميذ — إلى حوالى سن الحادية عشرة — كل عام في مدارسهم ، ما دامت المدارس واثقة من أن التلاميذ يدرسون ما يمكنهم فهمه وتحصيله ، على أيدي مدرسين يفهمون نفسيات واتجاهات التلاميذ الذين تحت أيديهم بمقدار ما يفهمون المواد التي يدرسونها لهم . وحتى في المدارس الثانوية ليس هناك إلا الامتحان النهائي فحسب ، مما جعل شبح الامتحانات الخيف الذي يقض مضاجع الأطفال يختفي أو يكاد ، فقد صاروا يدرسون لأنهم يحبون ويرغبون فيا يدرسون ، وليس لأنهم يرجون النجاح في الامتحان أو يخشون السقوط .

لاحظ المربون في الدنمرك قبل سنين كثيرة أن التلاميذ الذين تضطروهم الظروف بعد سن التعليم الإلزامي إلى مغادرة المدرسة للعمل يعود إليهم الحنين للدراسة بعد سنوات تقل أو تكثر ، ولكنهم لا يجدون مجال الدراسة المنظمة مفتوحاً أمامهم ، ومن هنا نشأت فكرة إقامة معاهد أو مدارس الشعب العالية . .

ولأصور للقارئ وضع هذه المدارس وجوها المادى والمعنوى ، سأحاول في إيحاز ، وصف إحداها ، وقد زرتها وقضيت فيها وبين أساتذتها وطلابها يوماً حافلاً بكل جديد طريف .

مدرسة داخلية تقع على ربوة هادئة في ضاحية قرية

عند ما قدمت السويد ، لم يلفت نظرى — كما كنت أتوقع من قبل — ما تشتهر به من بحيرات متجمدة وأنهار جارية ومبان منسقة ، وغير ذلك من مناظرها الشهيرة الخلابة ، بقدر ما لفت نظرى أبنائها بقاماتهم المديدة ودلائل الصحة والنشاط المتبدية على وجوههم وفي حركاتهم ، ولم يطل عجبى مما يستمتعون به من صحة الجسم والعقل معاً بعد أيام عدة من الإقامة بينهم ودراسة أحوالهم وزيارة مدارسهم ومجتمعاتهم ، وقد تحقق عندي بعض ما قرأته عنهم قبل سفرى إلى بلادهم من أنهم أطول الناس قامات وأعماراً ، وأقدرهم على العمل والإنتاج وطلب الإجابة في كل مجال . . .

كان الهدف الأول من ذهائى إلى السويد هو زيارة معاهدها العلمية ودراسة نظام التربية والتعليم فيها دراسة تتيح لى أن أقارنه بنظم التربية والتعليم في غيرها من البلاد التي خبرت . وفي بلد ضرب في المدينة بقسط وافر يتسع الحديث عن هذا المجال الحصب ويتفرع . ولو أردت الكلام عن كل ما رأيت هناك — وكله شيق مفيد — لطلال بنا الحديث . ولكنى سأجمل القول في ناحية أو اثنتين مما ليس لنا في الكويت به عهد .

يشتهر النظام التربوى في الممالك الاسكندنافية ، وبالأخص الدنمرك والسويد ، بنوع من المدارس يسمونه هناك « مدارس الشعب العالية » . وتكاد تنفرد هذه الممالك بهذا النوع من المؤسسات التعليمية التي لا تزال بعض الدول تعدها من ترف التعليم ، بينما تعدها دول أخرى من ضرورات المجتمعات الحديثة التي تخرص فيها الهيئات التعليمية على أن توفر لطالب المعرفة حاجته منها مهما كانت سنه أو مركزه المالى أو الأدبى .

ولا تشد السويد عن كل البلاد المتحضرة في أن التعليم بها إلزامى إلى سن معينة ، توفر بعدها أنواع شتى من الدراسات

من العاصمة « ستوكهلم » ، ليس بناؤها غمماً ولكنه بناء نظيف أنيق . يقبل فيها الطلبة والطالبات ممن يتراوح سنهم بين السادسة عشر والثلاثين . والمدرسة مجانية ، ومدة الدراسة فيها خمسة أشهر شتاء كل عام للجنسين وثلاثة في الصيف للسيدات فقط ، وللطالب أن يدرس عاماً واثنين ، وثلاثة إذا أراد .

استقبلنا العميد على الباب ، وطاف بنا على الفصول ، وقد نظمت على شكل حلقات دراسية يجلس الأستاذ على رأس الحلقة وحوله الطلبة يبحثون ويتناقشون ويستمعون . وأدهشتنا الحرية التي يعالج بها المدرسون موضوعاتهم ، واستطرددهم في البحث ، حتى أخبرنا العميد أن منهج الدراسة قد نظم بحيث تكون هناك دروس قليلة إجبارية لكل طالب وأخرى عديدة متنوعة يختار الطالب منها ما يريد . وتستمر هذه الدروس من الصباح الباكر إلى ما بعد الغروب . وهؤلاء الطلبة قد جاءوا مختارين راغبين في الاستفادة ، وقد تركوا أعمالهم ووظائفهم لكي يشبعوا نهيمهم العلمي في هذه الأشهر الخمسة أو الثلاثة ، ولذا فإن الحوافز النفسية لديهم متوافرة ، تدفعهم للعمل أكثر مما يدفعهم الامتحان أو ضغط النظام والقانون .

وفي المدرسة مسرح ومبعد ، وفيها حياة اجتماعية راقية يشرف على تسييرها من وراء الستار العميد ومساعدوه ، حتى إذا قضى هؤلاء الطلبة هذه الفترة من حياتهم عادوا إلى أعمالهم أكثر قدرة على إجادتها وأشد مراساً في الكفاح من أجل أهدافهم وأوسع مدارك وأكثر خبرة بالحياة . وأخذنا العميد بعد ذلك إلى جناح من المدرسة ، وقال لنا ونحن نجتاز ردهاته : هذا بيت الضيافة . . .

وبيت الضيافة هذا أشبه بفندق صغير في ركن ريفي هادئ ، يقبل فيه الأدباء والفنانون ورجال الأعمال الذين يرغبون في الاستراحة والاستجمام فترة من الزمن في جو علمي شعري هادئ . وعلى أن أجور السكنى والغذاء في هذا المضيف مثلها في الفنادق العادية فإن الاقبال عليه شديد من الطبقة المستنيرة . وهدف المدرسة الثقافي من إنشاء هذا المضيف زوجانين ؛ أن يستفيد الزلاء من مكتبة المدرسة الكبيرة ومراجعها ومعداتها ومن المحاضرات التي تلقى على الطلبة ومن النشاط الاجتماعي الذي تمتاز به مثل

هذه المدارس ، وأن يستفيد الطلبة من هؤلاء الزلاء المثقفين الذين ربما لم تتح لهم ظروف أعمالهم الاختلاط بمثلهم . وهكذا يكون الطلبة وزلاء المضيف مجتمعاً تسوده روح التعاون العلمي وانعدام نظام الطبقات سواء في شكله المادي أو الأدبي . ورغم أن مدارس الشعب ليس فيها جميعاً مثل هذا المضيف فإن هذه الفكرة الجريئة قد نجحت نجاحاً ملموساً .

وقبل انتهاء الزيارة دعانا العميد لتناول الشاي في منزله ، فإنه وجميع الأساتذة يسكنون على مقربة من المدرسة ، وهناك عزف لنا لحناً على البيان ، وغنت لنا زوجته أغنية سويدية طربنا لها وإن لم نفهم منها شيئاً ، وأردنا مداعبة العميد فقلنا له : لعل شغفك بالموسيقى هو الذي دعاك إلى أن تجعله جزءاً حيوياً من منهج مدرستك ؟ . فقال : إن دروس الموسيقى جزء ضروري في منهج جميع المدارس بالسويد ، وهي لمثل هذه المدرسة أكثر ضرورة ،

عندما أخذت السيارة تنهب بي الطريق من ضاحية « سجتونا » إلى استوكهلم بعد هذه الزيارة الممتعة ، كنت أسائل نفسي لم لم تمنع قلة السكان في هذا البلد من أن يستمتع باستقلاله وسيادته ، ولم لم تقف به موارده عن أن ينتج ما يحتاجه شعب متحضر ؟ ، وكيف لم تمنع برودة طقسه من أن ينفع الشعب بكل شبر من مساحته ؟ ، وكيف استطاع أن يحقق هذا المستوى الممتاز من الحياة لأفراده بعد أن أقام هذا النظام التعليمي الممتاز المبني على أسس تربوية متينة رائعة ؟ . . . وأثار في نفسي هذا التساؤل أسئلة أخرى ليست مما يهيج النفس أو يلذ للقارئ أن يستمع إليها ، وليست مما يقع تحت الحصر لسوء الحظ . . .

هذا لون واحد من ألوان كثيرة في مجال التعليم رأيتها بالسويد ، وقد كنت أود أن أتحدث إلى « البعثة » عن نواحي أخرى تشتهر بها هذه البلاد كذلك وبالأخص مدارس الألعاب السويدية . أو أن أتحدث عن المدارس الخاصة بالأطفال الشواذ ، أو عن معاهد التجارب العلمية ، أو عن جامعاتها ومعاهدها العالية ومكاتبها العامة ، أو غير هذا أو ذاك مما لنا فيه مجال واسع للاستفادة والاقتراس والعبرة ، فعسى أن تكون لنا إلى ذلك عودة إن شاء الله .

عبد العزيز صبيح

لندن